

الخاتمة

في خاتمة أيّ كتاب يتوقع القارئ أن يخرج عند الانتهاء من قراءته بحصيلة ما، والأصل أن يتمكن القارئ من تحديد هذه الحصيلة بنفسه، لأنّ المسألة هي - في أحد أبعادها - اختبار للقارئ لتحديد مدى جديته في القراءة لتحقيق الهدف الذي كان يسعى إليه، عندما اختار أن يقرأ الكتاب. لكنّ للمسألة بعداً آخر، هو اختبار للمؤلف في مدى نجاحه في الوصول بالقارئ الجادّ إلى ما أراد أن يُوصله إليه. وقد درّج المؤلفون على تيسير هذا الاختبار في حالتيه على القارئ، من جهة، ولاستدراك ما قد يكون المؤلف قد قصّر في إبرازه هدفاً أساسياً للكتاب، من جهة أخرى؛ إذ ربما يعمل حجم المادة التي تضمنها الكتاب وتعدد العناوين الرئيسية والفرعية فيه، وما حملته من بيانات واستطرادات، على توزّع الذهن على أمور شتى.

وهكذا جاءت عادة المؤلفين على تضمين الخاتمة مجموعةً من العناصر التي يرغب المؤلف أن يخرج القارئ بها. ومن هذه العناصر: خلاصة مركزة لمحتوى الكتاب، ولما حقّقه من الأهداف التي أشار إليها المؤلف في مقدمة الكتاب، والخصائص التي ميّزت الكتاب عن غيره في موضوعه ومنهجه، وكيفية الاستفادة من هذا الكتاب، والأسئلة التي أثارها الكتاب ولم تكن إجاباتها من أهداف الكتاب، ومن ثمّ فهي تحتاج مزيداً من الجهد، ربما بإحالة القارئ إلى كتابات متوفرة في مراجع أخرى، أو باقتراح إجراء بحوث ودارسات للإجابة عن تلك الأسئلة.

التراث في هذا الكتاب كان يعني العلوم التي كتبها العلماء، وقدموا فيها اجتهاداتهم البشرية، وتبيّن أنّ هذه الاجتهادات اختلفت باختلاف العلماء، حتى في الزمان نفسه والمكان نفسه، وتغيرت بتغيّر الزمان والمكان، وتنوعت بتنوع المنهج الذي وظّفه العلماء، وكانت تستجيب للتطور في حالة الأمة، والتغير الذي يطرأ

على المجتمع... كل ذلك على الرغم من وحدة المرجعية التي انطلقت منها هذه الاجتهادات، وهي مرجعية القرآن الكريم والسنة النبوية. وقد لاحظنا كيف أنّ التراث التربوي بدأ مع عصر التدوين، وأخذت العلوم تتشكل من خلال ممارسة التعليم، ثم تنفّرع منها علوم جديدة، تصبح كذلك موضوعات للتعليم. وكانت هذه العلوم تستهدف وصف المعايير والقيم التي تضبط سلوك الإنسان في المجتمع المسلم، في مجالات التعلّم والتعليم والتنشئة والتأديب والتربية والتزكية، ونشر العلوم اللازمة للمعاملات في الأحوال الشخصية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها. ومثلما كانت تنفّرع العلوم وتتمايز، كانت الطرق والأساليب المستعملة في التعليم تتنوّع وتتمايز كذلك.

وكل ما كان يكتبه العلماء في هذه العلوم ثم يقومون بتعليمه للناس هو فكرهم التربوي والتعليمي في زمانهم، لا يلبث أن يصبح تراثاً تربوياً يُخلّفونه للأجيال من بعدهم، وتأتي أجيال أخرى من العلماء يأخذون هذا التراث، ويضيفون إليهم من فكرهم واجتهادهم لزمانهم ومستجدات حياتهم، وهكذا ينمو الفكر ويتطور التراث.

وفي كثير من الأحيان تبقى مادة التراث التي كتبت في عصر معين صالحة لاعتمادها عبر العصور اللاحقة، ويكون التجديد فيها محدوداً، لأنّ هذه المادة كانت أقرب إلى المبادئ العامة والأحكام التي تتّصف بقدر من الثبات، فتدخل في مادة الفكر التربوي المعتمدة لذلك العصر اللاحق. لكنّ بعض ما قد يتم تطويره من خبرات تربوية في عصر لاحق ربّما يكون انحرافاً عن تلك المبادئ الثابتة، وانتكاساً عن المقاصد التربوية التي يريد الوحي الإلهي والهدي النبوي تحقيقها، من حفظٍ لكرامة الفرد، وقوةٍ في بنیان المجتمع وتكاملٍ في عمرانه.

وقد وجدنا أنّ في بعض التراث حديثاً معيارياً عمّا يجب أن تقوم عليه ممارسات التعليم والتربية وتقوم به، لاستناده على نصوص من القرآن الكريم

والسنة النبوية، ووفق اجتهاد مؤلفيه في فهم هذه النصوص وتنزيلها، وفي بعضه الآخر وصفاً لما كان يحدث من ممارسات تعليمية، مما يعطيه قيمة تاريخية.

لقد اجتهدنا في فصول هذا الكتاب أن نصنّف كثيراً من كتب التراث الإسلامي ضمن التراث التربوي والتعليمي، على أساس أنّ هذه الكتب كان يكتبها المؤلف، فتكون مادة يقدمها لتلاميذه فيقرأونها عليه، وقد يُمليها العالم على تلاميذه إملاءً، ثم تصبح كتباً تُستنسخ، ولا سيما للمراحل المتقدمة من التعليم، وفي موضوعات التخصص. لكننا أثرنا أن نخصص مادة التراث التربوي الإسلامي التي تحدثنا عنها في هذا الكتاب فيما ورد من هذه التراث عن العلم وفروعه، والتعلّم وطلبته، والتعليم وأساتذته ومؤسساته. ووجدنا أنّ الكثير من التراث التربوي بهذا المعنى قد تناوله اهتمام الباحثين كشفاً وتحقيقاً ونشراً ودراسة، لكننا لم نجد حصراً كاملاً يستقصى هذا التراث ويتبّع في مظانّه المخطوطة والمطبوعة، حتى عندما توفرت بعض المؤسسات على شيء من هذا الحصر، لاحظنا أنّه لم يكن استقصاءً تاماً ولا قريباً من التمام، ولم تصل درجة العناية به تلك الدرجة التي نالتها بعض الموضوعات التراثية الأخرى، مثل التراث الاقتصادي مثلاً. ومما يلفت الانتباه أنّ جهود المؤسسات الثلاث^(١) التي تولت دراسة التربية الإسلامية في سياقاتها التراثية وشملت المبادئ والمؤسسات والأعلام، لم تُستكمل لا من المؤسسات نفسها ولا من غيرها، ولم تنتشر المادة القيّمة التي أنجزتها في عقد الثمانينيات من القرن الماضي، على النطاق التي تستحقه، ولا نجد لها كثيراً من الحضور في أعمال الباحثين المعاصرين، مما نُغلبُ معه الظنّ بأنّ هؤلاء الباحثين لم يعلموا بها.

كما لاحظنا أنّ الجزء الأكبر مما كتب عن التراث التربوي الإسلامي طوال ما يقرب من قرن من الزمان من تاريخ الأمة الحديث كان يدور حول غرضين؛

(١) المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في الأردن، ومكتب التربية لدول الخليج في الرياض، والمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة في تونس.

الغرض الأول هو غرض تاريخي تحت مسميات إحياء التراث وتحقيقه ونشره حتى يتم العلم بوجوده، والغرض الثاني هو غرض نفسيّ تعويضي، يحاول إثارة روح الاعتزاز بتاريخ الأمة وتراثها، في وقت أصبح حاضر الأمة يمتلئ بكثير مما يدعو إلى الحسرة والأسى، وأصبح الجزء الأكبر من مادة التعليم المعاصر يُستورد، أو يُفرض، كما تستورد، أو تُفرض، سائر الأشياء الأخرى.

أما غرضنا في هذا الكتاب وما يلحقه مما يأتي بعده في هذه السلسلة إن شاء الله؛ فهو لا يتجاهل أهمية هذين الغرضين، لكنَّ الغرض الأكثر أهمية هو التأكيد على حاجتنا إلى بناء فكر تربوي إسلامي معاصر، يعتمد على المصدر الذي اعتمد عليه تراثنا التربوي، وهو الوحي الإلهي الذي يُعد مصدرنا المؤسس لفكرنا أمس واليوم وغداً، والهدي النبوي بصفته مصدرنا المبيّن الذي أوضح لنا منهج تنزيل الوحي الإلهي على الواقع البشري، فكان كذلك منهجاً هادياً لسعيّنا التربوي الإصلاحي اليوم وغداً، من أجل تجديد فهم مقاصد الدين وتنزيل نصوصه على واقعنا المعاصر، مستفيدين من تجربة التراث الإسلامي على امتداد تاريخه، وتنوع مناهجه، وتطور مدارسه، بصفته مصدراً ثالثاً، دون أن نتجاهل أننا نعيش واقعاً امتلاً بتجارب بشرية تشكل مصدراً رابعاً. وبذلك تتكامل عناصر الرؤية التي نعتمدها لمشروع الإصلاح الفكري الإسلامي المعاصر الذي يكون فيه الفكر التربوي الإسلامي المعاصر قاطرة القيادة.

لقد أثبتنا في الفصل الثالث من هذا الكتاب مختارات من عدد من النصوص التراثية ضمن الحجم الذي يمكن أن يستوعبه فصل واحد من فصول الكتاب. وقد كان الهدف من إثبات هذه النصوص هو تكوين قدر من الألفة بمادة التراث نفسها، ولتكون هذه المادة، بروحها ولغتها ومنهجها، موضوعاً لشيء من التحليل والمقارنة وملاحظة ملامح التطور في مضامين المادة، والتغيّر في المدرسة المنهجية التي تنطلق منها، مما جاء بعد ذلك في الفصول اللاحقة.

وحيث خصصنا فصلاً مستقلاً لدراسة التنوع بين مدارس التراث التربوي الإسلامي، الفقهي والحديثي والكلامي والفلسفي والصوفي والتاريخي والأدبي... فإنَّ غرضنا لم يقتصر على التأكيد التاريخي لهذا التنوع والتعدد، وإتاحة المجال للمقارنة والموازنة، بل تجاوز ذلك للتأكيد على أمرين؛ الأمر الأول: أنَّ شأن التعليم والتربية لم ينحصر في التاريخ الإسلامي بفئة محددة من أهل العلم والتخصص، بل كان هذا الشأن همَّ جميع حملة العلم، فكلُّ منهم كان مؤلفاً، ومعلماً، وساعياً إلى الإصلاح برؤيته، ومرشداً لما يلزم أن يكون عليه شأن التعليم، أو راوياً ومؤرخاً لما كان عليه هذا الشأن. أمَّا الأمر الثاني فهو أنَّ التراث التربوي الإسلامي الذي نريده أن يكون أحد مصادرنا هو هذا التراث بمناهجه ومدارسه المتعددة والمتنوعة، ولا نتخيل مجتمعاً إسلامياً لا يحتاج إلى الفقه والحديث والعقيدة والتزكية النفسية والأدب والفلسفة، فكما كان لكل مدرسة من هذه المدارس ظروفها في النشأة، والتطور، والإسهام التربوي، وتوفير البيئة المناسبة للتنوع في توجهات أبناء المجتمع، فإنَّ تجربة التنوع نفسها وما توفره من خبرات تربوية يحتاجها المجتمع، وما يقدمه هذا التنوع من تكامل في هذه الخبرات، ستكون أمراً مهماً في فهم التراث وتحديد ما يلزمنا اليوم من خبراته.

وكما هو متوقع في دراسة أي موضوع تاريخي، فإنَّنا لن نجد ذلك الموضوع في حالة سكونية ثابتة، فالخبرة تنمو وتنتقل من طور إلى آخر، وهكذا وجدنا التعليم في أوَّل التاريخ الإسلامي يبدأ بتعليم القرآن قبل تعليم أي علوم أخرى، وفي القرآن يبدأ التعليم بحفظه وبيان معانيه، ثم يتطور إلى علوم متعددة أخرى، منها القراءات، والتفسير، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، وفي تفسير القرآن يبدأ بالتفسير بالآثار المروية ثم يتطور إلى مناهج مختلفة من التفسير بالرأي، والتفسير اللغوي، والبلاغي، والإشاري، والعلمي والموضوعي... وهكذا في كل العلوم الأخرى.

ووجدنا أنَّ كلَّ العلوم بدأت بالمشاهدة ثم تطورت إلى التدوين، ومن مذاكرة العلم إلى تصنيفه، ومن إلقائه إلى إملائه، وتطورت أماكن التعليم من المسجد

والكتاب إلى مجالس التأديب والمدارس وغيرها، ومن كتابة المتون إلى وضع الشروح والمختصرات والمنظومات، وتطورت مكانة المعلم وتميزت أصناف المعلمين والمؤدبين.

ومن المهم ملاحظة أنّ التطور صفةٌ أساسيةٌ في تاريخ كل العلوم، وسنةٌ ماضيةٌ تحكم حركة الأشياء وحياة الناس، ولذلك فالتطور مسألةٌ منهجيةٌ تحتاج إلى أن تؤخذ بالحسبان في فهمنا للتراث التربوي الإسلامي، وفي فهمنا للفكر التربوي الإسلامي الذي نريد بناءه اليوم وغداً.

ويمكن لأية رؤية تحليلية للتراث التربوي أن تتناول مسألة أو أكثر من عشرات المسائل، ذات الصلة المباشرة بموضوعات التراث مثل: مكانة المعلم، والمناهج التعليمية، وطرق التدريس، والأدب والتأديب، وأماكن التعليم، والأوقاف التعليمية، وإجازات التعليم، وتعليم الذكور والإناث، وتعليم ذوي الحاجات الخاصة، وإدارة التعليم وتمويله، والمناهج المتعددة التي استعملت في كتابة مادته، والمرجعيات الفكرية التي انطلق منها المؤلفون، والعناصر المشتركة أو المختلفة في مصادر التراث التي تختص بأبي من هذه المسائل، والجدل الذي دار ولا يزال يدور حول بعض هذه المسائل، ثم ما قد ألقناه من مسائل حديثة مستجدة في تعليمنا المعاصر لننظر في مدى حضورها أو غيابها في مادة التراث، كل ذلك مسائل مفتوحة للبحث.

ويبقى السؤال الأكثر أهمية وهو يختص بالغرض الذي من أجله يمكن أن ننشغل بمثل هذه البحوث والدراسات في مسائل التراث. وهو ما حاولنا أن نفتح باب الإجابة عنه في الفصل السابع من الكتاب عند حديثنا عن منهجية التعامل مع التراث التربوي الإسلامي؛ ما معنى التعامل، ومن الذين يتعاملون، وما مناهج التعامل، حيث أبرزنا بعض أهداف البحث في التراث ووظائفه في الحياة المعاصرة، ولفتنا الانتباه إلى عدد من القيم الثابته في التراث التربوي، لذلك اقترحنا أن نعتمد مبادئ معينة في تحديد قيمة التراث والجوانب الممكنة لتوظيفه.

نأمل أن يكون القارئ قد لاحظ أنَّ الجمهور المستهدف من هذا الكتاب كان هو جمهور الباحثين من أساتذة الجامعات وطلبة الدراسات العليا، ولهذا الغرض، فقد أكثرنا من المواقع التي أثرنا فيها أسئلة يمكن أن تكون مشروعات بحثية. لكننا نقدر كذلك أن مادة الكتاب مهمة للتربويين المهتمين بالإصلاح التربوي بوجه خاص، وللمفكرين المهتمين بقضايا الإصلاح الفكري بوجه عام.

إنَّنا نأمل أن نكون قد حقَّقنا شيئاً مما كنَّا نطمح إلى تحقيقه من أهداف الكتاب، ومهدنا السبيل لثلاثة أغراض أخرى؛ الأول: هو الاقتراب من نصوص التراث التربوي الإسلامي وتكوين قدر من الألفة بروحها ولغتها، مما سيجده القارئ أكثر تفصيلاً في الكتاب الثاني من هذه السلسلة وهو "نصوص مختارة من التراث التربوي الإسلامي"، والغرض الثاني هو ملاحظة الاتساع في ميادين البحث العلمي في قضايا التراث التربوي الإسلامي، التي تقتضي الدخول في عمق هذا القضايا، وهو ما سيجده القارئ في الكتاب الثالث من هذه السلسلة وهو بعنوان: "مشروعات بحثية في التراث التربوي الإسلامي". أما الغرض الثالث، فهو في الأساس الغرض الذي قادنا منذ البداية إلى كتابة هذه الكتب الثلاثة، وهو الفكر التربوي الإسلامي، حيث تقرَّر لدينا أنَّ التراث التربوي الإسلامي واحد من مصادر ذلك الفكر الذي نريد بناءه.

لقد أشرنا في عدد من المواقع في هذا الكتاب إلى الحاجة الماسة للأخذ بمبدأ التكامل في مشروعات الإصلاح الفكري والتربوي الذي تسعى أمتنا لتحقيقه. ولذلك فإنَّ هذا المبدأ لم يغب عن عملنا في أثناء إنجاز هذه السلسلة من كتب التراث التربوي الإسلامي، وسيبقى حاضراً كذلك في عملنا لإنجاز الكتاب الأكثر أهمية، والأشدَّ إلحاحاً، وهو كتاب الفكر التربوي الإسلامي الذي نأمل أن نتمكن من إنجازه قريباً بإذن الله وتوفيقه.

نسأل الله التوفيق في الأمر، والعزيمة على الرشد، والحمد لله رب العالمين.